# مقاربة لقصيدة "موشح سداسي "Sestina" للشاعرة الأمريكية اليزابيث بيشوب: الشكل التقليدي استراتيجية علاجية لألم الفقدان ولواعجه[1]

د. وفاء عبداللطيف زين العابدين [*]

تسقط أمطار أيلول فوق سطح الدار
في ذلك الضوء الذاوي
تجلس الجدة في المطبخ
بجانبها الطفلة وعلى مقربة من ذلك الموقد الرائع الصغير
تقران بعض النكات التي ذيلت بها الروزنامة
تضحك وتتحدث مع الطفلة في محاولة لإخفاء دموعها

انها تعتقد ان دموعها الموسمية
ذلك المطر الهاطل بغزارة فوق سطح الدار
قد تنبأت بهما الروزنامة

---

(١) هذا الجزء مستل من الجزء الثالث لأطروحتي في الدكتوراه الموسومة (الإنجازات الثقافية للشواعر النقدات المحدثات: دراسة لايديث سيتويل واليزابيث ونازك الملائكة) جامعة بغداد، ٢٠٠٣، ص ٢٢٣-٢٢٨.

(*) كلية الآداب / جامعة الموصل.

ولكن ذلك لم يكن معروفا إلا لدى الجدة
بدأ إبريق الشاي يغني أيضا وهو فوق الموقد
انها تقطّعُ بعض الخبز وتقول للطفلة:

حان وقت الشاي الآن، ولكن الطفلة
ما انفكت تراقب دموع الإبريق الساخنة الصغيرة
ترقص بجنوب فوق الموقد الأسود الملتهب
بنفس طريقة رقص الأمطار فوق سطح الدار.
ترتب الجدة كل شيء
وتعلّقُ الروزنامة في مكانها

كأنها طير تحلّقُ الروزنامة
مفتوحة فوق رأس الطفلة
وقد امتلأ كوب شايها بدموع سود غامقة
ترتجف الجدة وتعبر عن اعتقادها
ان الدار كلها ترتجف أيضا
لذلك أخذت تضعُ المزيدُ من الخشب في الموقد.

"كان لابد ان يكون" قال الموقد الرائع
"اعرف ما اعرف" قالت الروزنامة
أخذت الطفلة ترسم بألوانها بيتاً مينا
وطريقاً تلفحُهُ زوبعة

ثم تضيف رجلا بأزرار تُشبه الدموع
وتُري الرسم بفخر لجدتها

ولكن وبكل سرية،
وبينما تُشغلُ الجدةُ نفسها بالموقد
تتساقط الأقمارُ الصغيرة في لوحة الطفلة كالدموع
بين صفحات الروزنامة
والى داخل سرير الطفلة الموشح بالورود
والذي وضعتهُ الطفلة باهتمام أمام الدار.

حان الوقت لزراعة الدموع، تقول الروزنامة
تُغنّي الجدة للموقد الرائع
وترسم الطفلة بيتا آخر غامضا[٢].

---

(2) Elizabeth Bishop, The Complete Poems (1927-1979) (1967; New York: The Moonday P., 1991), PP. 123-124; P. 178.

ان الموشح السداسي Sestina هي قصيدة من (٣٣) بيت مقسمة إلى ست مقاطع، كل مقطع من ستة اسطر، تنتهي المقاطع الست بمقطع ثلاثي الأسطر. ينتهي كل مقطع من المقاطع الست بكلمة، تتكرر بنمط مفيد في كل المقاطع الست، اما المقطع الثلاثي الأخير فينبغي ان يستخدم هذه الكلمات الست نفسها، ثلاثة منها ينبغي ان تكون آخر كل سطر، والثلاثة الآخر تظهر في وسط الأسطر هذه في الجدول التالي خريطة لهذا الموشح، ان كل رقم يمثل كلمة محدودة:

←

في قصيدتها "موشح سداسي " Sestina " تستثمر الشاعرة اليزابيث بيشوب وظائف سردية ونفسية في اختيارها لهذا الشكل الشعري الصعب "الموشح السداسي" وهي تقدم تجربة نفسية مروعة، وهي الفقدان. هنا تسترد الشاعرة مشهد سيرة ذاتية وهي طفلة في الخامسة من العمر في أعقاب القبض على والدتها من قبل ممرضي المصحة النفسية بعد إصابتها بانهيار عصبي شديد وحاد. وفي محاولة لخلق جو طبيعي، تجلس الجدة في المطبخ مع حفيدتها وتقرأ النكات التي تحتويها الروزنامة محاولة إخفاء الحزن والدموع:

تسقط أمطار أيلول فوق سطح الدار
في ذلك الضوء الذاوي
تجلس الجدة في المطبخ
بجانبها الطفلة على مقربة من ذلك الموقد الرائع الصغير
تقرأن بعض النكات التي ذيلت بها الروزنامة
تضحك وتتحدث مع الطفلة في محاولة لإخفاء دموعها.

**(المقطع الأول)**

| المقطع الثاني | المقطع الثالث | المقطع الرابع | القطع الخامس | المقطع السادس | المقطع الثاني |
|---|---|---|---|---|---|
| ٢-٥ | ٣ | ٥ | ٤ | ٢ | ١ |
| ٣-٤ | ٦ | ٣ | ٥ | ٤ | ٢ |
| ١-٦ | ٤ | ٢ | ١ | ٦ | ٣ |
| | ١ | ٦ | ٣ | ٥ | ٤ |
| | ٢ | ١ | ٦ | ٣ | ٥ |
| | ٥ | ٤ | ٢ | ١ | ٦ |

متوفر على موقع الانترنيت

URL: *www. math. nwu. edu/ trans / poems / sestina-html. Retrieved: oct. 12, 2001.*

ان "أمطار أيلول" هي الحدث الخارجي الذي يوجع الأشياء المنزلية عند مقارنتها بالحدث الداخلي هطول "دموعها"، هكذا يكون الانتقال من البداية الموضوعية / الخارجية إلى الذاتية / الداخلية. فالنكات والدموع والمحادثة الودية بين الجدة والطفلة تتجرف جميعا في دوامة فوضى تلك اللحظة الشديدة التأزّم. ان التوتر يسود منذ المقطع الأول ليضفي على باقي مقاطع القصيدة بأكملها صراعا بين مستلزمات الشكل الشعري الصعب "الموشح السداسي "Sestina" وبين جهل الطفلة أو عدم درايتها المفتعلة كمصدر لدموع الجدة المتخفية يتوقف الزمن في لحظة شديدة: انه وقت الشفق الأحمر، زمن بين الليل والنهار، وهي فضاء ينم عن اللايقين، ومن الواضح ان الجدة تعتقد بانها نجحت في إخفاء حزنها على ابنتها من خلال "المحادثة والمداعبة" مع الطفلة، بيد ان الطفلة لم تفهم ما يحدث فحسب ولكنها بدأت تخمن، وقالت بلسان الشاعرة:

انها تعتقد ان دموعها الموسمية
وذلك المطر الهاطل بغزارة فوق سطح الدار
قد تنبّأت بهما الروزنامة
ولكن ذلك لم يكن معروفاً إلا لدى الجدة
بدأ إبريق الشاي يغني أيضا وهو فوق الموقد
انها تقطع بعض الخبز وتقول للطفلة:

**(المقطع الثاني)**

ان "الدموع الموسمية" كالأمطار الموسمية ما برحت تهطل وتتوقف، انها مواجهة جديدة بين الموضوعي / الخارجي والذاتي / الداخلي. ويمكن ملاحظة التطور البلاغي الخاص بوصف الدموع، فهي لم تعد تهطل من العيون، بل ان كل

شيء حول الجدة والطفلة صار يبكي: ترقص قطرات إبريق الشاي وهو يغلي فوق الموقد استجابة للأمطار الراقصة فوق سطح الدار ثم في كوب شاي الجدة. ورغم المحاولات لإستبعاد الدموع / الأمطار، يصبح الفضاء طافحا بهما، انها علامة على المكبوت من الحزن الراغب في التدفق خارجا كقطرات الماء المغلي داخل إبريق الشاي، ليأتي حوار الجدة إلى الطفلة قائلة:

"حان وقت الشاي الآن"، ولكن الطفلة
ما انفكت تراقب دموع الإبريق الساخنة الصغيرة
ترقص بجنون فوق الموقد الأسود الملتهب
بنفس طريقة رقص الأمطار فوق سطح الدار.
ترتّبُ الجدة كل شيء
وتعلق الروزنامة في مكانها

**(المقطع الثالث)**

ان التأكيد الجاري على المقطع الأول من كلام الجدة المباشر "حان وقت الشاي الآن" هي محاولة أخرى لإزاحة الحزن من اجل خلق جو طبيعي اعتيادي، غير ان الطفلة ما انفكت تراقب الدموع المتخفية في شاي الجدة "دموعها البنية السوداء" بعد أن أعادت الروزنامة إلى مكانها المعهود، لكن:

كانها طير تحلق الروزنامة
مفتوحة فوق رأس الطفلة
وقد امتلأ كوب شايها بدموع سود غامقة
ترتجف الجدة بردا وتعبر عن اعتقادها

ان الدار كلها ترتجف أيضا

لذلك أخذت تضع المزيد من الخشب في الموقد

**(المقطع الرابع)**

لقد أصبحت الدار كلها تفيض بالدموع التي بردت بسبب ضغط إخفائها. وبنفس طريقة احتباس الجدة لحزنها ودموعها، تخفي الطفلة حزنها برسم "بيتا متينا / وطريقا تلحفه زوبعة". بدأت الطفلة تُسقِط إحساسها بالدموع برسم "رجل بأزرار تُشبه الدموع / وتُري الرسم بفخر لجدتها"، التي لم تشعر بألم الطفلة المتأتي من الحزن المسكوت عنه، وهكذا يأتي المقطع الخامس من القصيدة حيث تُقوّل الشاعرة كل الأشياء ما عدا الإنسان:

"كان لابد ان يكون"، قال الموقد الرائع

"اعرف ما اعرف"، قالت الروزنامة

أخذت الطفلة ترسم بألوانها بيتا متينا

وطريقا تلفحه زوبعة

ثم تضيف الطفلة رجلا بأزرار تُشبهُ الدموع

وترى الرسم بفخر لجدتها

**(المقطع الخامس)**

تستنطق الشاعرة الأشياء لتعبر عوضا عن البشر الصامتين عن مشاعرهم المكبوتة، فالطفلة التي تسقط مشاعرها على هذه الأشياء تشعر بالراحة من الموقد المتكلم والروزنامة المتحدثة. انها جميعا تحمل رسائل، فالموقد يقدم مواساته قائلا "كان لابد ان يكون" وتُعلن الروزنامة "اعرف ما اعرف"، اما "البيت المتين"

التي ترسمه الطفلة بألوانها فهي عملية تنفيس إبداعية خلاقة، إيماءة تعويضية. ان الرجل الذي ترسمه الطفلة أمام البيت هو الأبُ الغائب أيضا، انها لحظة توجّع، ولوعة الإحساس باليتم.

منكفئة "سريا" إلى عالمها الطفولي الحالم، ترسم الطفلة لائبة "أقمار صغيرة تسقط كالدموع":

ولكن وبكل سرية
وبينما تشغلُ الجدة نفسها بالموقد
تتساقط الأقمارُ الصغيرة في لوحة الطفلة كالدموع
بين صفحات الروزنامة
والى داخل سرير الطفلة الموشح بالورود
والذي وضعتهُ الطفلة باهتمام أمام الدار.

**(المقطع السادس)**

من المعروف تقليديا أن الأقمار هي رمز لقوة الإلهام أو الخيال وهكذا يكون لجوء الشاعرة / الطفلة إلى العمل الإبداعي طريقة للمواساة والتنفيس عن المسكوت عنه. فالمقطع الأخير من القصيدة "الذي مقطع ثلاثي" يشكل الخاتمة لهذا الوشح السداسي ينبثق عن مشهد حياتي كامل يتمثل في العيش بهدوء مع فقدان الأعزاء وغيابهم من خلال استمرار الطفلة / الشاعرة في رسم "بيت غامض"، وهي طريقة حياة دائمة التواصل في التعبير المتأجج ولو بهدوء بيشوب المعهود عن العزاء حيث لا تهيمن سطوة الماضي المؤلم على الحاضر فحسب بل يكون الماضي لحظات وجل مأزومة ويكون الحاضر شعريا متوشج اللواعج متطلّعا

لمستقبل مضطرم بكل عوامل الانفصال، وبالتالي الدخول في مرحلة الإبداع المتألقة:

حان الوقت لزراعة الدموع، تقول الروزنامة
تغني الجدة للموقد الرائع
وترسم الطفلة بيتا آخر غامضا.

**(المقطع الأخير)**

لقد اختارت الشاعرة الشكل العمودي التقليدي الصعب ليكون القالب الذي تصب فيه جل معاناتها ولكن بعاطفة شديدة الهدوء وبأقل ما يمكن من التجرد من الذاتية. ففي دراسته للعلاقة بين التقييد الذي يفرضه هذا الشكل التقليدي وثيما الفقدان، يقول الناقد الأمريكي ما يكل لانكفورد ان قصيدة بيشوب تقدم موضوع العملية الإبداعية نفسها وماضي الشاعرة المؤلم والأسئلة الكثيرة التي تدور في ذهنها منذئذ ولا تجد لها إجابات"، فهو يقارن بين تناول الطفلة لأصباغها ورسمها "بيتا متينا" بالشاعرة البالغة بيشوب وهي تتناول قلمها "لتبني بيتها المتين"، ذلك التركيب الشعري الصعب، "الموشح السداسي". ان الطفلة وجدتها هي قصة العملية الإبداعية عند بيشوب الشاعرة، ان أول علامة على غموض "الفقدان" تكمن في ذلك "الضوء الذاوي" حيث تجلس الجدة مع حفيدتها في المطبخ تحاولان اعتصار الفرح من الروزنامة. وبنفس الطريقة تحاول بيشوب، استبطانا، ان تكتب عن قدرها "المكتوب" وهو الفقدان. ان مراسيم الجدة في إعداد الشاي تشبه تماما مراسيم بيشوب في "ترتيب" الشكل العمودي لقصيدتها لجمهور القراء. "تماما مثلما تُري الشاعرة بفخر قصيدتها للناس، وتُري الطفلة رسمها بفخر لجدتها،

ورغم عدم وعيها بالمضامين الكامنة وراء ذلك مثل الحاجة القاهرة لوجود الأم الغائبة عن البيت"، إذن فالطفلة هي السلف للشاعرة، ورغم ان الشاعرة تقدم إزاحة اعمق واكبر من خلال "جعل فنها مهنة لها والطريق الذي تلفحه زوبعة هو الماضي العنيد الغامض". وهكذا تحس الشاعرة بالبرد وتقول بان القصيدة "باردة أيضا بسبب استخدام الشكل التقليدي الصارم كقالب لتبريد الأحاسيس المتأججة وبالتالي تغييبها تماما"(٣).

اما الناقد الأمريكي مايكل ريان في دراسته التحليلية النفسية عن القصيدة فيجد علاقة بين الشكل التقليدي للموشح السداسي والكارثة العاطفية المسكوت عنها، ويقول بان العنوان نفسه انما هو "إيماءة دفاعية لإزاحة الألم من اجل تعويضها بفعالية تأتي بالهدوء والنظام لكأبة منفلتة وحزن لا ينضب". تلك الفعالية هي كتابة الشعر وتعويض المرجعية الذاتية بعنوان أدبي جاف العاطفة وبالتالي تجنب الشخصنة وتوخي الموضوعية. لقد أصبحت الأشياء في فضاء القصيدة تمثيلات ذهنية تنبئ بالانضباط والهدوء. كما ان المقطع الثلاثي الأخير الذي يبدأ بـ "حان الوقت لزراعة الدموع" في عملية "دفن الحزن" و "الترميم" وبالتالي "الشفاء"، اما تحول "الموقد الجميل" إلى "موقد رائع" في نفس المقطع فهو دليل آخر على الوصول إلى "حالة سوية" حيث تحولت الجدة من مغنية "للموقد الرائع" إلى أم بديلة. ويختم ريان بالقول ان الشكل التقليدي اكتسب هنا وظيفة علاجية ـ شفائية أتاحت تحول الألم والفقدان إلى وسيلة للترميم، "فالبيت الغامض" اصبح الفعالية الفنية ومسيرة حياة "الفن الفقدان" كما تسمية بيشوب نفسها "The Art Of Loss" في قصيدتها الشهيرة والتي كتبتها في الأشهر الأخيرة من حياتها وعنوانه "الفن

(3)Michael Lankford, "Bishop's Sestina", ***Explicator***, 52:1 (Fall 1993), 57-59.

الأوحد" "One Art" وهو الفن الذي أصبحت سيدته الشهيرة "فن الفقدان" أي فن الشعر(٤).

من المنصف هنا ان اقدم ترجمة لهذه القصيدة "الفن الأوحد" كي اختم بها البحث، واذكر ان هذه القصيدة أيضا مكتوبة بشكل تقليدي يسمى بالقصيدة المقطعية "Stanzaic Poem":

الفن الأوحد

ان تكون سيدة فن الفقدان ليس صعبا
فكل الأشياء تُنذر بمحتومية الفقدان والانفصال
فالفقدان ليس كارثة

لتفقدْ شيئا كل يوم، تقبلْ الأمر
كفقدان مفاتيح الأبواب، وزوال الساعة الكئيبة
ان تكون سيد فن الفقدان ليس صعبا
ثم تعودُ على الفقدان والانفصال اكثر فاكثر، وأسرع فأسرع
الأماكن والأسماء، وكل ما تلقى في السفر
فلا شيء من هذه سيوقع لك كارثة.
لقد فقدتُ ساعة أمي، انظر انها آخر ما املك
أو قبل الأخير، لقد فقدتُ ثلاثة بيوتْ
فان تكون سيد الفقدان، ليس أمرا شاقا

(4)Michael Ryan, ***literary Theory: A Practical Introdution*** (MA: Blackwell Publisher, Inc, 1999), P. 38.

لقد انفصلتُ عن مدينتين، احب اثنتين.

واكثر من ذلك وتلك المملكات التي كانت لي يوما،

نهرين وقارة، انفصلت عنهم جميعا

فقدتهم جميعا، ولكنها لم تكن كارثة.

وحتى عندما فقدتُكِ (بصوتك الساخر الحبيب، بإيماءاتك التي احب)

لم اكذبْ يوما كم أحببتك

وهذا دليل على ان فن الانفصال ليس صعبا رغم انه كذلك

لذا فاكتبي (أمر نفسي)

١. ان كل فقدان انما كان كارثة.